

خمس حقائق مذهشة عن قوة العمل الجماعي: دروس من شبكات الإدماج في أفريقيا

"إذا أردت أن تسير بسرعة، فاهذب وحدك. وإذا أردت أن تصل بعيداً، فاهذب مع الآخرين."

يُجسد هذا المثل الأفريقي القديم حكمة خالدة. ولكن كيف يمكن تحويل هذه الحكمة إلى تغيير ملموس على أرض الواقع؟ كيف تمكنت شبكات مجتمعية بسيطة في دول مثل زامبيا وزنجبار وأوغندا من تحقيق نتائج "فاقت كل التوقعات" في مجال إدماج الأشخاص ذوي الإعاقة؟ الإجابة تكمن في نموذج عملي، تم توثيقه في دليل إرشادي طورته الجمعية النرويجية للمعاقين (NAD) بالتعاون مع شبكة التأهيل المجتمعي في أفريقيا (CAN). يهدف هذا المقال إلى استخلاص ومشاركة الدروس الأكثر تأثيراً وغير البديهية المستفادة من نموذج شبكات التنمية الدامجة القائمة على المجتمع (CBID)، والتي تقدم رؤى قيمة لكل من يسعى إلى بناء مجتمعات أقوى وأكثر عدلاً.

1- الهيكل الأقوى ليس منظمة، بل شبكة تواصل مرنة

من أولى الحقائق المدهشة أن شبكات التنمية الشاملة القائمة على المجتمع مُصممة عمداً ألا تكون منظمات رسمية مسجلة. قد يبدو هذا مخالفاً للمنطق السائد الذي يربط التأثير بالهياكل الرسمية، ولكنه في الواقع سر قوتها ومرونتها.

يكنم الذكاء الاستراتيجي في هذا النهج في تجنب "فخ" المؤسسة المبكرة الذي تقع فيه العديد من الحركات المجتمعية، حيث يؤدي التسجيل الرسمي غالباً إلى الانغماس في البيروقراطية، وتحويل التركيز من المهمة الأساسية إلى جمع التبرعات، وخطر الانحراف عن الرسالة الأصلية. من خلال البقاء كشبكة، يبقى التركيز منصّباً بشكل كامل على "التواصل" والتعاون بين الأطراف المعنية، مما يحافظ على خفة الحركة وتوجيه كل الطاقات نحو الهدف الأسمى: بناء الروابط وتنسيق الجهود لتحقيق إدماج حقيقي.

"من المهم أن تظل شبكات التنمية الدامجة القائمة على المجتمع مركزة على الهدف العام المتمثل في 'التواصل' بدلاً من التحول إلى منظمة 'تنفيذية'."

2- إعادة تعريف المشكلة: الإعاقة ليست في الشخص، بل في الحواجز المجتمعية

يقدم هذا النموذج تحولاً فكرياً عميقاً في كيفية فهم الإعاقة. فبدلاً من النظر إليها كقضية طبية شخصية أو حالة تستدعي الإحسان (النموذج الطبي/الخيرى)، يتم تعريفها كنتيجة مباشرة للحواجز التي يضعها المجتمع (النموذج القائم على الحقوق). هذا المنظور، المستمد من اتفاقية الأمم المتحدة لحقوق الأشخاص ذوي الإعاقة، يضع مسؤولية التغيير على عاتق المجتمع بأسره، وليس على الفرد. قوة إعادة الصياغة هذه تكمن في أنها تحول الحوار من مجرد تقديم المساعدة والصدقة إلى الاعتراف بالحقوق الإنسانية الأساسية والمطالبة بالمساواة في الوصول والمشاركة الكاملة في جميع جوانب الحياة. لم يعد الشخص "مشكلة" تحتاج إلى إصلاح، بل أصبح المجتمع هو الذي يحتاج إلى التكيف ليصبح أكثر شمولاً وعدلاً.

"...يتم الاعتراف بالإعاقة على أنها ناتجة عن فشل المجتمع في استيعاب الأشخاص ذوي الإعاقة."

3- القيادة لأصحابها: مبدأ "لا شيء يخصنا بدوننا"

يكن سر أصالة النموذج وفعاليته في مبدأ غير قابل للتفاوض: يجب أن يكون الأشخاص ذوو الإعاقة في صميم قيادة هذه الشبكات. لا يُعد هذا مجرد توصية، بل قاعدة واضحة ومحددة لضمان أن تكون الحلول والاستراتيجيات نابعة من الخبرة الحية لأصحاب الشأن أنفسهم.

تكن أهمية هذه القاعدة في أنها تتجاوز المشاركة الرمزية إلى الملكية والقيادة الفعلية. عندما يقود الأشخاص ذوو الإعاقة، تصبح الشبكة أكثر استجابة للاحتياجات الحقيقية، وأكثر إبداعاً في إيجاد الحلول، وأكثر إلهاماً في تمكين المجتمع الذي تخدمه. إنه التطبيق العملي لمبدأ عالمي يضمن أن القرارات لا تُتخذ بالنيابة عن مجتمع ما، بل من خلاله وبقيادته.

"تأكد من أن واحداً على الأقل من المنسقين هو شخص من ذوي الإعاقة – لا شيء يخصنا بدوننا."

4- التغيير الحقيقي يبدأ في مجموعة واتساب

في عصر المنصات الرقمية المعقدة والمكلفة التي غالباً ما يفضلها قطاع التنمية، يقدم هذا النموذج درساً في "البساطة الجذرية": الأداة الأساسية لهذه الشبكات الفعالة هي تقنية بسيطة ومتاحة للجميع، وهي تطبيق واتساب.

يُستخدم واتساب للتواصل اليومي، وتبادل المعلومات، والأهم من ذلك، لعقد اجتماعات أسبوعية منتظمة بين منسقي المناطق المختلفة عبر الرسائل النصية. يعكس هذا الاختيار فهماً عميقاً للواقع العملي، حيث يجعل المشاركة متاحة للغاية، ومنخفضة التكلفة، وديناميكية. ومن خلال إزالة الحواجز التقنية والمالية، يضمن هذا النهج البسيط أن يتمكن الجميع من الانضمام والمساهمة بفعالية، محولاً أداة يومية إلى محرك قوي للتنسيق والتغيير الاجتماعي.

5- الإدماج الشامل يعني كل شيء، في كل مكان، وفي كل وقت

تقدم الشبكات إطاراً قوياً يُعرف باسم "مصفوفة التأهيل المجتمعي (CBR Matrix) لتحدي الفهم الضيق لمفهوم "الإدماج"، وهي بمثابة خريطة شاملة للحياة الإنسانية. توضح هذه المصفوفة أن الإدماج الحقيقي يتجاوز بكثير المجالات الواضحة مثل الرعاية الصحية والتعليم ليشمل كل جانب من جوانب المجتمع.

تتكون المصفوفة من خمسة مكونات رئيسية: الصحة، والتعليم، وسبل العيش، والمجال الاجتماعي، والتمكين. تشمل هذه المكونات عناصر متنوعة تُظهر الطبيعة الشاملة للإدماج، مثل العدالة، والثقافة والفنون، والمشاركة السياسية. لكن القوة الحقيقية للمصفوفة تكمن في توضيح الترابط بين هذه العناصر؛ فالحواجز في أحد المجالات تخلق تأثيراً دوماً في المجالات الأخرى. على سبيل المثال، الحصول على جهاز مساعد (الصحة) قد يكون شرطاً أساسياً للقدرة على العمل (سبل العيش)، كما أن الوصول إلى التعليم (التعليم) يزيد من فرص الحصول على عمل لائق. هذه النظرة الشاملة تُعلمنا أنه لا يمكن تحقيق الإدماج الكامل إلا من خلال نهج متكامل يعالج جميع جوانب الحياة المجتمعية.

وختاما

تكشف هذه الدروس أن القوة الهائلة للتغيير الاجتماعي المستدام لا تأتي بالضرورة من الهياكل الهرمية أو التقنيات المعقدة، بل من نسج الروابط الإنسانية، والالتزام بمبادئ واضحة، واستخدام أدوات بسيطة ومتاحة للجميع. إنها تذكرنا بما قاله المثل الأفريقي في البداية: عندما نسير معًا، يمكننا بالفعل الوصول بعيدًا.

تُظهر لنا هذه الشبكات أنه عندما نتواصل ونتعاون، يمكننا تحقيق ما يفوق التوقعات. فما هي الحواجز في مجتمعاتنا التي يمكننا البدء في تفكيكها اليوم، بمجرد التواصل مع بعضنا البعض؟